ترجمة أحمد فاروق

بيرغيت مينّيل وشتيفان نوفوتني

لغات الضواحي

93

91 و92 و93 و94- رمزت هذه الأرقام في السنوات السابقة على قيام دولة الجزائر المستقلة لأقاليم فرنسية هي الجزائر العاصمة ووهران وقسنطينة وأراضي جنوب الجزائر في منطقة ظلت مستعمرة منذ عام 1830، وكانت تعد، على خلاف معظم المستعمرات الفرنسية الأخرى، جزءا لا يتجزء من الآراضي الفرنسية. وعبر تعديل إداري أُجري في عام 1968 وُزعت الأرقام "المحررة" في عام 1962 على الأقاليم المختلفة في محيط باريس الكبرى: فأصبح الرقم 91 يرمز منذ ذاك الحين لإقليم إسونّ الواقع في الطرف الجنوبي البعيد بعض الشيء لمنطقة التركز السكاني الباريسية، وهو جزء مما يسمى ب *grande couronne* (التاج الكبير) لباريس، أي ذاك الحزام الأبعد من البلديات الذي يرسم الحدود الخارجية لنطاق التركز السكاني للمتروبول. أما الأرقام 92 و93 و94 فصارت تشكل سوية ما يعرف ب *petite couronne* (التاج الصغير) وهو الدائرة الأضيق المسماة *Banlieues* أي الضواحي التي تحيط مباشرة بالمدينة. ترمز 92 و93و94 حاليا للأقاليم التالية: اوت دو سين (92) الممتد من الشمال إلى الجنوب مارا بغرب العاصمة، وسين-سان دوني (93) في الشمال والشمال الشرقي وكذلك فال –دو-مارن (94) في الجنوب والجنوب الشرقي.

لكن ينبغي علينا ألا نتعجل كثيرا في استخلاص نتائج من هذا الربط بين تاريخ الاستعمار الفرنسي للجزائر وبين حاضر الضواحي الباريسية التي هي موضوع اهتمامنا. ولا يعود السبب في ذلك فقط لكون لعبة الأرقام الخاصة بالتعديل الإداري لا تبرهن على الكثير، بل إن "التاج" الفرنسي قبل الثورة قد شيد مقراته في "الضواحي" قبل زمن بعيد: وهكذا فإن حي فرساي الذي كان قصره مستقرا للملوك المستبدين في القرنين السابع والثامن عشر قد غدا اليوم كبلدية تابعا لإقليم إيفيلين في نطاق التاج الكبير *grande couronne*. وفي أوت دو سين (92)، في نطاق التاج الصغير *petite couronne*

لا توجد فقط أغني بلدية في فرنسا وهي نويلي-سور-سين التي ترأسها من عام 1983 إلى عام 2001 الرئيس الفرنسي السابق نيكولا ساركوزي، بل ويوجد به أيضا حي الأعمال لاديفونس ذو المباني الشاهقة التي تعكس انطباعا بجنون العظمة، والذي يمتد عبر عدة ضواح (من بينها نانتر، والتي كانت في السابق منطلقا لحركة 68 الباريسية) ويستعرض بلفتة معمارية ظافرة مراكز سلطة البنوك وشركات التأمين.[i]

ومع ذلك فإن الدال "*Banlieue*" له رمزية مختلفة وأكثر وضوحا. إذ لا نجد في مواجهة معناه التقني الذي يوهم بأنه محايد ك "ضاحية" تاريخ الكلمة وأصلها فحسب، وإنما نجد أيضا التأكيد على القيمة والمعنى اللذين أُسبغا عليه في النقاشات المعاصرة.

بدايةً يعود الأصل اللغوي ل "*Banlieue*" إلى *Lieu de ban* أي "مِيل الحظر" (وأصلها في اللاتينية *banum Leucae*- رغم أنه يوجد لوحدة قياس المسافات هذه أي الميل أطوال مختلفة). هذا ما كان يُطلق في أزمنة الإقطاع على المنطقة الواقعة خارج المدينة والمحيطة مع ذلك بها ومتصلة بالحياة فيها، وكانت تخضع لقضاء المدينة لمنع ممارسة أية أنشطة اقتصادية أو اجتماعية غير مرغوبة. ويجدر هنا ذكر أن هذا المصطلح لم يكن وفقا لتاريخ اللغة هو الوحيد من نوعه. لكنه بالمقارنة بالمصطلح المنافس *faubourg* (وأصله اللاتيني *foris burgum* أي خارج المدينة) قد رسخَ لحد كبير كوصف لنوع معين من "الضواحي".

وحيثما يجري الحديث في فرنسا عن ال "*Banlieues*" فإن المقصود يكون على كل حال ما يعرف بالمناطق الحساسة zones sensibles، "البؤر الفقيرة" في أطراف المدينة التي تتسم بالبطالة وانعدام الأفق لدى الشباب والعنف والإجرام والنشاطات الاقتصادية السرية سيئة السمعة كتجارة المخدرات مثلا. وتوجد محاولات شهيرة في العلوم الاجتماعية لفهم هذه "المناطق" عبر التفرقة الواضحة والمختلفة بينها وبين الغيتوهات في الولايات المتحدة الأمريكية باعتبار أن الأولى هي بيئات "لهامشية متقدمة" (لويك واكون Loïc Waquant) أو بيئات ل "انفصال" اجتماعي لم يحسم كليا بعد (Robert Castel).[ii] لكن في المقابل تتمكن أفلام فرنسية منتجة بأسلوب السينما الجماهيرية مثل فيلم "*Banlieue 13*" أي الضاحية رقم 13 والفيلم التالي عليه "الضاحية 13: *مهلة أخيرة*"[iii] من إيجاز وتكثيف ما يجمع بين الكثير من التخيلات السائدة. فالفيلمان يصوران عالما تحكمه العصابات معزول عن باريس بجدار لا يمكن تجاوزه تقريبا. وحتى عندما تتجاوز وحشية النخبة السياسية على الجانب الآخر من الجدار وحشية العصابات المذكورة، فإن الأمر يتعلق في البداية بعالم مهمل مهجور: عالم ليس "أبيض"، بل عالم يميز نفسه بتنظيم قَبَلي معين عبر طيف من الألوان "الأخرى" والأجساد

"البيضاء" الموشومة. إنه عالم لا يستطيع أن يتخلى عن وجهه العنيف إلا في نضاله العادل ضد قامعيه، هذا النضال الذي يتطهر من خلاله، لكي يكتسب أخيرا وجها "إنسانيا" اجتماعيا وتضامنيا.[iv]

وبالمناسبة لا يصعب في هذين الفيلمين إدراك أن المقصود ب"الضاحية 13" هو الإقليم "93" لأن رقم 93 بالفرنسية يُنطق كالتالي *quatre-vingt-treize* والتشديد يكون على الكلمة الأخيرة *treize* التي تعني 13. وبالفعل فإن إقليم سين سان دوني أي 93 كثيرا ما يلائمه دور ال "*Banlieue*" بامتياز. وهذا ليس فقط لأن الأقليم "93" هو الوحيد من بين أقاليم التاج الصغير الذي يشتهر بأن به لحد ما منطقة حساسة *zone sensible*، فمنه انطلقت أيضا الاضطرابات التي امتدت سريعا إلى الضواحي في معظم أرجاء فرنسا في خريف عام 2005، بعدما لقي شابان فاران من الشرطة مصرعهما صعقا بالتيار الكهربائي في محطة توزيع للكهرباء في كليشي- سو- بوا.

"كاتر شومان" *Quatre-Chemins*

يعود الفضل في لقائنا بالإقليم "93" إلى تعاون لمشروع المعهد الأوروبي للسياسات الثقافية التقدمية "أوروبا كفضاء ترجمي. سياسات التغاير اللغوي" مع مختبرات أوبرفيليي التي أتاحت لنا خلال عام 2011 الإقامة مرات عديدة طويلة في أوبرفيليي،[v] امتدت في مجملها لشهرين. وكان الجزء المهم في هذه الإقامة مخصصا للتحضير وفي نهاية المطاف إخراج ورشة عمل وأسبوع فعاليات، أُقيما في المختبرات في سبتمبر عام 2012 (الكاتبات والكتاب والمتحدثات والمتحدثون في هذه النصوص المنشورة هم من المشاركين في الورشة ومنظميها كما أنهم كانوا من الفاعلين المهمين في أجزاء من أسبوع الفعاليات).[vi]

"كاتر شومان" أي أربعة طرق هو اسم المنطقة الذي وصلنا إليها في أوبرفيلي. إنه اسم محطة الخط رقم سبعة من قطار الأنفاق الباريسي الذي يربط مركز باريس بأوبرفيلي وهو في الوقت ذاته اسم لتقاطع شوارع كبير وللحي المحيط به غير بعيد عن حدود "الضاحية" و"المدينة". ويجدر بالذكر أن "الطرق الأربعة" (كاتر شومان) التي تتلاقى أو تفترق عن بعضها البعض، يؤدي أحد محوريها إلى باريس وفي الاتجاه المعاكس إلى لاكورنيف (وهي منطقة توجد بها المجمعات السكنية التقليدية للضواحي-تحديدا بلدة *سيتيه دى 4000* التي سميت هكذا لأنها المجمع السكني بها يضم أربعة آلاف مسكن)، أما على المحور الآخر وبشكل ما بطول حزام الضواحي الداخلي، يقود الطريق مباشرة إلى حي بانتان المجاور أو في الاتجاه المعاكس إلى وسط مركز أوبرفيليي ومن بعد إلى سان دوني.

ومن الأشياء التي قيلت لنا لدى وصولنا إلى أوبرفيليي (وهي مدينة تسكنها 80000 نسمة) أن عدد ضخما جدا من "الجنسيات" المختلفة تتعايش هنا وأنه بإمكان كاتر شومان كمنطقة أن تضفي مصداقية على هذه المعلومة. ومع ذلك فقد اهتممنا أكثر بأنواع أخرى من التنوعات، يمكن تنميطها وإحصاؤها وفقا "للجنسيات" أو ما شابه: تنوعات عابرة للأمور الذاتية والنشاطات الاجتماعية عوضا عن تقييمها وتقييدها، تنوعات تقطعها خطوط فاصلة لكنها مع ذلك تجتاز هذه الخطوط على الدوام أو تحاول "إصلاحها". من هذا المنظور تبدو منطقة مثل كاتر شومان في البداية كمجال قوى متذبذب تتشابك فيه نشاطات اجتماعية واقتصادات وأحاسيس وألوان وأنغام (أو بالأحرى درجات وتنويعات من الألوان والأنغام) وأخيرا وليس بآخر "لغات (أو بالأحرى أساليب للكلام): إنها تتداخل في بعضها البعض أو تتمايز عن بعضها البعض، ولكن على نحو يجعل من غير الممكن التأكد أبدا إن كانت انطباعات التداخل أو التخطي أو التمايز نابعة من الإدراك الذاتي أم من الشيء المدرَك.

توجد ظواهر أخرى تتضح فيها الفروق بصورة أكثر- ولكن هذه المرة كخطوط فاصلة لا تعد تعبيرا جليا عن تمايزات غير أكيدة، بل هي نتاج لإجراءات مقصودة: مثلا عندما يتحتم على المقاهي والحانات في الضاحية أن تغلق عند منتصف الليل، في حين أن ساعة الإغلاق المحددة رسميا في باريس هي الثانية صباحا. أو عندما تُهدم المباني القديمة التي تميز مناطق عديدة من أوبرفيليي أو تتحول إلى مبان متداعية أو حفر للبناء لكي تفسح مساحةُ عمرانيةُ غيرُ مأهولةٍ المجالَ لمجمعات بنايات عالية تشق عنان السماء وتضم أكبر عدد من المساكن. أو أيضا (لأن أوبرفيليي تنتمي إلى ضواحي باريس القريبة) عندما يُفتتح أثناء إقامتنا هناك مركز تسوق تجاري ضخم، ويجري العمل على تشييد جامعة وتبعا لذلك تمديد خط قطار الأنفاق في حين يتطلب التنقل بين الضواحي الأقل "ارتباطا" (مثل كليشي-سو-بوا السالفة الذكر) وباريس وقتا أطول من الوقت الذي يحتاجه المرء للسفر بين باريس وبروكسل.

لا يسعنا المجال هنا لتتبع هذه الخطوط الفاصلة كل على حدة وبدرجة أقل لا يمكننا تتبع هذه التنوعات اللانهائية التي انصب اهتمامنا عليها في البداية. لكن يمكننا وربما ينبغي علينا أن نقول إننا قد جلبنا معنا عندما وصلنا إلى كاتر شومان سؤالا حول علاقات اللغة والترجمة كتعبير عن الأوضاع الاجتماعية فيما يسمى بالضواحي. وقد طُرح هذا السؤال بحيث يشكل من جانبه نوعا من "التقاطع": وكانت الطرق الأربعة التي تتلاقى فيه أو بالأحرى تفترق عنده تتمثل في محور الأحادية اللغوية والتعددية اللغوية، ومحور التغاير اللغوي والتجانس اللغوي أو بدقة أكثر-حسب تعبير ناوكي ساكاي[vii]- الخطابات اللغوية المتغايرة وأنظمة الخطاب اللغوي المتجانس.

التغاير اللغوي للضواحي

ليس بوسعنا هنا سوى أن نعرض باختصار شديد لفكرة ساكاي الرئيسية: لا يمكن فهم ظاهرة الترجمة التي تعد مركزية لدى ساكاي، إلا عندما يتم التفكير في ترابط اجتماعي لا تكون فيه "اللُغات"– بمعنى الرموز الموجودة التي يتفاهم بها المتكلمون إلى حد ما– منقولة فقط. بعبارة أخرى فإن الترجمة ليست مجرد نقل للمعاني من "اللغة المصدر" إلى "اللغة الهدف"، يتحقق بالضرورة وعبر متخصصين، حيثما لا تتوفر شروط "التواصل" المتاحة عبر لغة مشتركة. إنها، أي الترجمة، تؤسس بالأحرى "خطابا لغويا متغايرا" لفتح علاقة لغوية تتقاطع مع لغة أو أخرى أو مع لغات عديدة كما تؤسس لهذا الخطاب المنطلق من لغوية افتراضية متمايزة وبقدر ما مشتتة، لا يمكن اختزالها في هوية هذه اللغة أو لغات أخرى، أو في هذه "الجماعة اللغوية" أو تلك أو في المعاني التي "جرى التواصل بها". ولا تبدو ظاهرة الترجمة ثانوية غريبة في في مواجهة وحدات "اللغات" و"الجماعات اللغوية" الوهمية وغيرها التي كانت موجودة في السابق، إلا عبر تمثيل معين لهذه العملية وعبر *الأنظمة* المتضافرة مع هذا التمثيل (ل"الخطاب اللغوي المتجانس") التي تؤثر على هذه العملية وتعدلها وتحولها إلى صورتها النموذجية.

إذن فالتغاير اللغوي هو اسم لتنوع لا يحصى. ويتيح المصطلح المقابل أي "التجانس اللغوي" تحديد وحدات أو عدد قابل للإحصاء من تنوعات "اللغة". ونحن نُذّكرُ هنا بكاتر شومان: من يقيم هنا، فربما يحاول أن يتعرف على لغة أو أخرى أو أن يحصي اللغات التي تداخلت في بعضها في هذا المكان، أو يقيم الناس على أساس "عدد" اللغات التي يتكلمونها ومع من. ولكن حتى أكثر اللغات اختلافا عن اللغات الأخرى، أي الفرنسية، لا تزال بعيدة جدا عن تأسيس وحدة مطابقة لذاتها: وكل محاولة لتعداد اللغات تشابه محاولة إحصاء عدد الناس الذين يتقافزون في حفل أو في تظاهرة سياسية، ولا يعد تنوعهم مرتبطا بالضرورة بعددهم. ولكي نبقى في الصورة، من يا ترى يريد أن يحصي تشابكات العلاقات التي لا حصر لها التي تُكسب أي حفل أو مظاهرة جودتها الخاصة؟

لكننا جلبنا كل هذا معنا *كسؤال*، كمقترحٍ بوضع منظور ما، ولن نقوم هنا أيضا بوضع *نظرية* بشأن لغة "الضواحي". إن كل مقترح بوضع منظور يرتبط حتميا أيضا بالمنظور الخاص وبترتيب خاص للمصالح الذاتية. ونحن نسعى لعرض هذه المنظورات أو الترتيبات الخاصة والتوجهات التي تهمنا في نقطتين.

تختص النقطة الأولى بمسألة التعبير السياسي أو تحديدا باضطرابات الضواحي في خريف 2005 والكثير من ردود الفعل العلنية عليها: ليس من المفاجيء أن يحاول اليمين السياسي في فرنسا وخارجها

اختزال هذه الاضطرابات إما باعتبارها عنفا أعمى لا يعبر عن شيء أو كتعبير عن "كراهية للغرب" على أساس عرقي أو ديني. لكن الغريب أن الكثير من النقاشات لدى اليسار- وربما خصوصا خارج فرنسا- التي بدا أنها قد ظلت أسيرة للبديل النظري المجرد، إما أدارت ظهرها للمحتجين الشباب في تشوش فكري، أو أنها سُحرت بالحملقة في شيء لم تفهمه تماما، لكن على الأقل يمكن طرحه كموضوع للمقاومة وبه قوة ثورية سياسية كامنة. لكن سرعان ما يتكشف أن الموقف الثاني ليس سوى إسقاط محض يتّبع "حقيقة" التعبير السياسي الاجتماعي القائم، دون أن يقوم بأي تحليل أو مناقشة لهذا التعبير. في المقابل لا يعود التشوش في الموقف الأول فقط- وربما ليس في المقام الأول- إلى أن هذا التعبير فيما يبدو للعيان كان عبارة عن حرق للسيارات وفي حالة أخرى (نوقشت كثيرا) حرق مدرسة، بل إن للأمر علاقة بأن المتظاهرين ليسوا منظمين ولم يقوموا بترتيب مطالب على شكل بيانات أو مجموعة من المطالب.

وهنا بالضبط نأتي إلى النقطة الثانية، إذ أنه يمكننا المبالغة بالقول إن مثل هذا البديل النظري قد يؤدي إلى اعتبار هذا التعبير ذي معنى منقول (ووفقا لذلك، لا بد فقط من "إظهاره" إلى حد ما بشكل ناجح) أو أنه على العكس من ذلك لا معنى له (أو أن يكون معناه بأي حال مشبوها)، طالما أنه لم يحافظ على الشكل المقرر لإنتاج المعاني السياسية والاجتماعية. أما التعبير في حد ذاته فلم يعد ينشغل به أحد لا في هذه الحالة ولا تلك. وهذا هو الأغرب خصوصا في الوقت الذي تميزت فيه الضواحي بزخم غير عادي في أساليب التعبير و"اللغات" أو "أساليب الكلام"- والتي لم يتم إدراكها بعد حتى بعيدا عن مسألة اللغات *السياسية*، طالما أن هذه اللغات وأساليب الكلام ما زالت واقعة تحت طائلة الشك بأنها ليست لغة فرنسية "سليمة"، أو يتم اختزالها في لغات أخرى "سليمة" (بطول محور أحادية اللغة/تعددية اللغة).

ويتعلق الأمر هنا بمجال لغة "الأُرغة" (اللغة السرية الخاصة في الأحياء الفقيرة) وخصوصا الكلام ب"الفيرلان"، هذه اللغة التي يتجدد اختراعها باستمرار عبر وسائل عدة من بينها قلب مقاطع الكلمات والتي تطورت في البداية في ضواحي باريس. وسنكتفي بمثال واحد: كلمة babtou هي صيغة شائعة بلغة الفيرلان لكلمة toubab التي كانت تستخدم منذ العصر الاستعماري في أجزاء من غرب أفريقيا لوصف "البيض" أو "الأوروبيين". لكن ربما يكون هذا التحديد لمعنى toubab به الكثير من التعجل. على كل حال لقد ذكر فرانتز فانون في كتابه "بشرة سوداء، وأقنعة بيضاء"، أنه أثناء خدمته العسكرية

في الجيش الفرنسي قد احتُسب من ال toubab من قِبل أحد أفراد فرقة المشاة السنغالية التي تقاتل أيضا من أجل فرنسا، لأنه كقادم من جزر الأنتيل يخدم بغض النظر عن لون بشرته في الفرقة "البيضاء":

"إننا نتذكر يوما، عندما كنا في وسط المعارك بصدد إزالة وكر للأسلحة الآلية. وقد أُرسل السنغاليون ثلاث مرات وعادوا مدحورين. ثم تساءل أحدهم لماذا لا تذهبوا أنتم أيها الtoubab . في هذه اللحظات لا يعرف المرء إن كان من ال toubab أم من أهل البلاد."[viii]

أما فيما يتعلق باستخدام babtou في فرنسا اليوم، فسيكون من المفيد القراءة عنها في منتديات الإنترنت العديدة. صحيح أن معنى "أبيض أو بيضاء" لاجدال عليه، لكن السؤال يكمن فيمن يمكن أن تُطلق عليه الكلمة وفي أي المواقف وبالتركيز على أي قيمة من القيم، لا توجد له إجابة واضحة: إنها إجابة لا يمكن تحريرها من علاقات الخطاب المعقدة. ومن هنا فإن babtou تعد على نحو معين كلمة "متغايرة لغويا" إنها كلمة لا تنتمي حقا للغة مُرمزة. ولا يمكن ترجمتها من لغة مُرمزة إلى لغة مُرمزة أخرى– وهذا ليس فقط لأن بها تاريخ خاص ومعقد في الوقت ذاته، ولكن على وجه الخصوص لأن الكلمة تخضع قبل أي ترميز لعملية ترجمة دائمة.

لكن من جانب آخر تنشأ في سياقات معينة لفن الراب على وجه الخصوص لغةُ سياسية واضحة جدا وغنية، يمكن أن ندرك فيها أشياء كثيرة ذات صلة بخريف 2005، الأمر الذي افتقده البعض في "التعبير أمام الرأي العام". وللتفرقة بينه وبين الترميز الوطني لما يعرف بالراب الفرنسي *rap français* وفي الوقت ذاته بينه وبين المصالح التسويقية لصناعة الموسيقى كثيرا ما يطلق على هذا الراب *rap de fils d'immigrés* (راب أبناء المهاجرين)[ix]. ويرتبط هذا الراب بأسماء عدة من بينها لا روماير La Rumeur أو أنفلاش Anfalsh أو كاسي Casey وهي جزء من مجموعة أنفلاش.

ومن الملامح المهمة لهذا الراب بجانب موقفه المباشر من الأحداث السياسية الحالية– طرحه الممنهج لقضايا الهجرة أو الاستعمار أو "الموقف ما بعد الكولونيالي" أو تاريخ اقتصاد العبودية وكثيرا ما تكون ثمة إشارات واضحة إلى كُتاب مناهضين للاستعمار مثل إيمي سيزار وفرانتز فانون.[x] أما الملمح الثاني (وهو مرتبط أكثر من الأول السالف ذكره بتاريخ نشأة الراب) فهو العكس الممنهج للنظرة:

"إن ثورة الراب هي عكس النظرة. فالأمر لم يعد يتعلق بالمجتمع ووسائل الإعلام المهيمنة التي تسلط نظرتها على موضوع الهجرة وشباب الضواحي، بل بالشباب القادمين من هذه الضواحي عينها، هم الذين يتأملون المجتمع ويقولون رأيهم. وهذا انقلاب رمزي غير مألوف."[xi]

ويرتبط عكس النظرة هذا بدفاع لا يقل حسما عما يمكن للمرء أن يطلق عليه قواعد الخطاب. لذا يمكن فهم اسم فريق La Rumeur (الإشاعة) كفكرة مضادة لإملاءات خطاب منظم يخضع لشروط معينة. وهذه الفكرة المضادة لها أيضا علاقة بتاريخ التعبير بالراب، حيث تتسلسل وتتعدد التعابير بضمير الأنا[xii]: هذا يعني أن الهدف ليس هو *الإقناع* أو الإجماع على المقولات التي يجري ترديدها، بل أن يكون المرء شاهدا أو يصنع أشكالا للتعبير يمكن أن تجذب تعابير أخرى ناشئة من خبرات مختلفة وأن تتلاحم معها.

أما الملمح الثالث والأخير هنا فهو طرح إشكالية "ماهية" اللغة. ويكتمل هذا الطرح الإشكالي ليس فقط في استخدام تعبيرات لغتي الأُرغة والفيرلان بالتزامن مع إتقان اللغة "الفرنسية" الراقية (حسب مفهوم الأكاديمية الفرنسية التي تعمل منذ عام 1635 كمنظمة حارسة للغة الفرنسية)، عبر الربط التلقائي بلغات أخرى مثل العربية[xiii] أو الإشارات إلى لغات الكريول، كما هي الحال لدى فريق كاسي. كما يكتمل أيضا بالاشارة إلى تاريخ اللغة الفرنسية. وهكذا نشرت فرقة الراب Ministère des affaires populaires (وزارة الشؤون الجماهيرية) من مدينة ليلّ، التي تغني أحيانا بالعربية، ألبوما بعنوان *Les bronzés font du ch'ti* (وحسب سياق تداعي المعاني تكون الترجمة: السُمر/ أو المِسمِرون/ يصنعون/ يمارسون/يتعلمون ش تي) وش تي حسب المصطلحات اللسانية هي واحدة من اللهجات "العديدة" التي أُقصيت في الآونة الأخيرة كي تختفي لصالح أنظمة التجانس اللغوي الوطنية. لكن المسألة هنا لا تتعلق ب"بالاعتراف والتقدير" أو "الإنقاذ" المتحفي للغة أصبحت حسب اليونسكو "مهددة بشكل خطير". بل بالأحرى، وحسبما يبدو لنا، بالدفاع عن التغاير اللغوي الذي يرتبط من جانب بالتذكير بالسياسات التجانس اللغوي ومن ناحية الأخرى بالتأكيد على "صيرورة" اللغة (في مقابل "كينونتها).

لا شيء سوى الكلمات

"الكلمات مهمة" كان عنوانا لأحد الحوارات الصحفية التي اقتبسنا منها فيما سبق مع هامي Hamé. لكن هذا لا يستبعد، (من منظور سياسة الترجمة) بل يتضمن أن الكلمات ليست "سوى كلمات". ولهذا سنختم بمشهد من فيلم لجمعية *Engraineurs*[xiv] الفنية ناقشناه عدة مرات خلال ورشة العمل في أوبرفيليي. إنه مشهد افتتاحي في فيلم بعنوان *Rien que des mots* (لا شيء سوى الكلمات) ويدور حول الموضوع الكلاسيكي المرتبط بالترجمة سواء على المستوى العملي أو النظري، وهو الخيانة.

يُظهر المشهد تلميذة من عائلة جزائرية تُستدعى من قبل مدرس مع أمها إلى المدرسة (الواقعة في إقليم 93)، فيما يبحث أبوها لها عن الرجل المناسب في الجزائر. لا تتكلم الأم الفرنسية والمدرس لا يتكلم العربية بحيث تجد التلميذة نفسها محصورة بين سلطتين وتصبح المترجمة التي لا غنى عنها، وتكتشف في الوقت ذاته *الحرية* التي تتمتع بها في الترجمة. تفهم لعبة الخطاب التي تفرض قواعد أكثر ما تطرح إمكانات التلاعب التي تبحث عنها في الوقت الحالي بصورة مكثفة (سواء عبر المغازلات أو في الفرقة المسرحية، كما تظهر مشاهد لاحقة). وهي إذن تترجم ما يرغبان في سماعه وتخون بذلك المعنى المقال. لكن الشيء الأكثر أهمية هو أنها قد فتحت لنفسها ثغرة لا تهدف في المقام الأول لمهاجمة هذه السلطة أو تلك بل للحد من نفوذها- وأولا وقبل كل شيء لخلق حياتها الخاصة.

---

[i] ليس من قبيل الصدفة أن يجد قوس النصر، النصب التذكاري للحروب النابوليونية، في "غراند آرش" بحي لا ديفونس صنوا له، وهما مرتبطان عبر محور مروري وبصري.

[ii] قارن: Loïc Wacquant, *Parias urbains. Ghetto, banlieues, État*, Paris: La Découverte 2006; Robert Castel, *La discrimination négative*, Paris: Seuil 2007.

[iii] *Banlieue 13*, Frankreich 2004, R: Pierre Morel; *Banlieue 13: Ultimatum*, France 2009, R: Patrick Alessandrin.

[iv] يذكر التصميم بالخيالات القديمة المعهودة "للتقدم": ربما يكفي أن نفكر في حجج هيغل فيما يخص العبودية.

[v] نود هنا أن نتوجه بالشكر لكل فريق مختبرات أوبرفيليي آنذاك لتعاونهم واستقبالهم الودي الحار: ونشكر في المقام الأول ناتاشا بيترشين-باشيليه وفيرجين بوبان اللتين كُلفتا برعايتنا، ولكن شكرنا يتوجه أيضا بالقدر نفسه إلى غريغوري كاستيرا وأليس شوشا وباربارا كوفي وكلير هارساني وباولين هورل وآن مييه وتانغوي نيدليك لمشاركاتهم الشخصية المتنوعة والكثير من المحاورات والنصائح والدعم.

[vi] قارن http://eipcp.net/projects/heterolingual/files/workshop1-de. ونتوجه بالشكر العميق لكل المشاركين في ورشة العمل على وجه الخصوص وفي الوقت ذاته لكل المشاركين في هذا العدد من مجلة *transversal*: بالطبع لمساهمتهم، هذا من جانب، ومن جانب آخر لاستعدادهم التلقائي للمشاركة معنا ومع زميلنا بوريس بودن وعبر تقسيمات عديدة لتكوين هذه المجموعة المتنوعة (أن كويرين) التي كان عليها أن تكتشف ما الذي يربط بين الجميع.

[vii] قارن: Naoki Sakai, *Translation and Subjectivity. On „Japan“ and Cultural Nationalism*, Minneapolis: University of Minnesota Press 1997.

[viii] عن الترجمة الألمانية: Frantz Fanon, *Schwarze Haut, weiße Masken*, übers. v. Eva Moldenhauer, Frankfurt/M.: Suhrkamp 1985, P. 21.

[ix] هامي هو عضو فرقة لا رومير وقد حكى في إحدى المقابلات الصحفية من عام 2010 ما يلي: لقد حددنا موقعنا بوضوح وقلنا بوضوح أننا لسنا ‘Beurs‚ أي عرب أو "سود" في سنوات عنصرية "انقذوا أرواحنا". في يوم من الأيام سُئلت كيف أصف الراب الخاص بي وأجبت إنه راب أبناء المهاجرين، إنه راب لابن أحد العمال المهاجرين". (قارن: (http://lmsi.net/Rap-de-fils-d-immigres; abgerufen am 10. April 2013

[x] قارن على وجه الخصوص ألبومات (2006) *Tragédie d'une trajectoire* و(2010) *Libérez la bête* لـ Casey وكذلك ألبومات La Rumeur.

[xi] هامي مرة أخرى، قارن: www.mouvements.info/Hors-cadre-entretien-avec-Hame.html (تم تصفحها في 10 أبريل 2013)

[xii] قارن أغنية الراب "Artiste„ لأوكسومو بوتشينو: Devenir la première personne des singuliers / Se passe rarement de façon régulière“ (وبترجمة عربية أقرب للنظرية: أن تصبح ضمير الأنا المفرد/ هذا أمر نادرا ما يتم حسب القواعد)

وكذلك الفصل المعنون "Ring Shout„ من كتاب: Christian Béthune, *Le Rap. Une esthétique hors la loi*, Paris: Éditions Autrement 2003, P. 18–29.

[xiii] قارن نص أمينة بن صالح ومريم سوشيه في هذه العدد من *transversal*.

[xiv] قارن الحوار مع سونيا شيخ في هذا العدد من *transversal*.